**الأستاذ بيرم كمال**
**المحاضرة 7**
**مقياس المجتمع الجزائري وفعالياته**

**علاقة العثمانيين بالرعية:**
تنسب الرعية عادة الى كل الفئات التي هي تحت سلطة الإدارة العثمانية على اختلاف مراتبها الاجتماعية او نفوذها المحلي من فبائل خاضعة او مستقلة او اسر نافذة متعاونة او زوايا وعلماء انطلاقا من التمايز بين المحلي الجزائري والوافد العثماني. ولدراسة العلاقة التي جمعت السلطة بالسكان لا يمكن حصر الدراسة في مواقف محددة او لفترات منفصلة الا في اطار التواصل الزمني الذي وجد فيه العثمانيون بالجزائر والظروف التي لازمته والتي حددت مسار العلاقة. كانت العلاقة ذات طابع عسكري، معتمدة في ذلك على جهاز إداري مستمد من التقاليد المتوارثة والتنظيمات العثمانية المحدثة التي لا تخلو من القسوة وذلك لتحقيق أهداف ثلاث هي:
1 - إقرار الأمن والمحافظة على الاستقرار والهدوء.[5]
2 – ضمان استخلاص الجباية والضرائب.
3 – المحافظة على وضع اقتصادي واجتماعي ينمي امتيازات الجماعة الحاكمة، والمتعاونين معها.[1]

هذه العزلة عن غالبية السكان، وعدم التجاوب مع ممثلي الشرائح الاجتماعية الفاعلة والمؤثرة في المجتمع المتمثلة في زعماء القبائل، وشيوخ الزوايا من طرف إدارة البايلكات أدى في بعض الجهات للتمرد، والعصيان والثورة مثلما هو في المناطق الجبلية والجهات السهبية من طرف بعض الطرق الدينية الصوفية: كدرقاوة والتيجانية، وعلى العموم يمكن تلخيص علاقة الأتراك بالأهالي بقول صالح محمد العنتري في كتابه: تاريخ قسنطينة: "إن الأتراك وهم في بدء أمرهم حين لم يتمكنوا من الوطن كل التمكن، عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحدا، وحين تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم، ويأخذون أموالهم بغير حق ويعدون ولا يوفون ويؤمنون ويغدرون".[2]

**علاقتهم بسكان المدن:**
**إدارة سكان المدن:**
**تدار المدن بواسطة قياد المدن:** فيعين أغلبهم من طرف الباي، إلا القليل منهم مثل قائد المدينة الجزائر وقائد تلمسان، اللذين أصبحا يعينان مباشرة من طرف الداي بالجزائر في عهد "الداي علي باشا" وكان هذا التعيين سواء من طرف الباي أو الداي بالجزائر في الغالب يتم عن طريق الالتزام فالقياد يشترون وظائفهم بكمية من المال[1].
ويلحق بقياد المدن قياد مرتبطون بالخدمات الخاصة بمراكز البايلك مثل:
**قائد المقصورة:** وهو حاجب الباي الذي يعتني بمسكنه الخاص.**قائد الجبيرة:** حامل محفظة الباي، التي هي في الواقع عبارة عن حقيبة جلدية تعلق في مقدمة السرج.**قائد الطاسة:** مكلف بحمل الآنية وتحضير ما يتناوله الباي.**قائد الدريبة:**

وهو حارس الباب الرئيسي بالقصر وعادة ما يختار من العبيد السود[2].والواقع أننا نجد في أواخر القرن الثامن عشـــر، موظفين يعملون تحت أوامر القياد، ونتطرق إليهم بالترتيب:ـ **قائد الباب:** وهو المكلف بمكس المدينة يراقب جميع الســلع والبضــائع التجارية، التي تدخل المدينة يســاعده " خوجة" أو "كاتب" وعشــرة عمال[3]ـ **قائد الســوق:** أو مفتش الســوق،ويتلقى قائد الســوق حقا على كل سـلعة وبضاعة تباع وكان بالمدينة أسواق يومية[4].

ـ **قائد الزبل:** وهو المكلف بنظافة شـوارع المدينة وأسـواقها. **قائد حمار:** وهو قائد بغالي البايلك ويقبض مكس على كل بغل يدخل المدينة محملا بسلعة. **قائد القصبة:** وهو مكلف بمراقبة وإدارة البنايات العمومية " العاهرات"، ويقع تحت ســلطته القوبجية المكلفون بحماية الأخلاق والمحافظة على الأمن. ـ **خليفة الليل:** وكان رئيسا للدورية التي يقوم بها الحراس "القوبجيوت" ليلا وكان مصحوبا في الغالب بقائد القصـبة.ـ **وكيل بيت المال:** يدير مصـالح الفقراء والأملاك التي ليس لها ورثاء ومكلف بالعناية بالمسـاجد وتقديم الإعلانات إلى المعوزين كما كان مكلفا بمراسـيم ودفن الموتى وحراسة المقابر [5].[6]

وبالنظر الى ضالة العنصر التركي في الجزائر تحددت أنماط من العلاقات مع السكان فعلاقة الحكام مع العلماء مثلا كان يدعمها إلى غاية 1792م الجهاد ضد التواجد الإسباني، الذي شكل العامل المشترك بين الحكام من جهة و الأهالي خاصة العلماء منهم من جهة أخرى ،

أدرك العثمانيون أن أقرب الناس إليهم هم رجال الدين، و التصوف فاطمئنوا لهم منذ بداية تواجدهم بالجزائر[7]، و اتبعوا معهم سياسة التعامل بالحسنى[8]، و تقربوا منهم وأظهروا لهم احتراما غالبا ما يكون مبالغا فيه، و هذا باعتبارهم القوة الوحيدة التي يلجئون إليها لإخضاع الرعية[9].إن دور العلماء وخاصة المرابطين في التحريض على الجهاد، و تعبئة الأهالي يسمح لنا بالقول أن توطن العثمانيين تحقق بفضل العلماء خاصة المرابطين الذين هيئوا الأرضية لاستقبال أبطال الإسلام الذين حاربوا الأسبان.

من هنا يتضح لنا أنّ عامل الجهاد ضد العدو لعب دورا إيجابيا في تدعيم فكرة التحالف بين الطرفين، و قد حافظ الأتراك منذ بداية تواجدهم على هذا التحالف حتى يظهروا بمنظر المناصرين للدين، وحماته لذلك أعجب بهم الجزائريون الذين تخوفوا من تمكن الأسبان من توسيع نفوذهم بالداخل، و خاصة و أن صراعهم ضد الأسبان اتخذ صبغة دينية، الأمر الذي أكسبهم دعم العلماء الذين أشادوا بهم في قصائدهم الحماسية إلى درجة أن أصبح الجهاد ضد الأسبان إحدى مظاهر التقارب و التحالف بين الحكام والعلماء، خاصة شيوخ الزوايا والمرابطين الذين نجح العثمانيون في كسب دعمهم ومساعدتهم أو على الأقل الحصول على حيادهم[10].ونتيجة للاعتقادات التي حملها العثمانيون معهم فقد بالغوا في تعظيم العلماء خاصة المرابطين و اطمئنوا إليهم، و تبركوا بهم، و استشاروهم في عدة أمور سياسية، كما أطلعوهم على خططهم[11]، و أغدقوا عليهم الهدايا، و الهبات باعتبارهم أكثر فئات المجتمع إيمانا بمعتقداتهم الدينية و نزعتهم الجهادية، كما كانوا القوة الوحيدة المؤثرة في المجتمع والتي يمكنهم الاعتماد عليها لإخضاع الأهالي والتحكم فيها عبر كل أرجاء إيالة الجزائر.

في المدن ، تمتع العلماء و المرابطين بوضعية مريحة مقابل حيادهم في الأمور السياسية إرضاء للسلطة[12]، و بعدم تدخلهم في الأمور العامة إلا لتأييد السلطة[13]، وهو ما يفسر انعزالهم عن السلطة كليا[14]، إضافة إلى نيلهم نسبة من مغانم القرصنة، و الهدايا في المناسبات، هذه الإمتيازات تحولت فيما بعد إلى امتيازات من النوع الروحي[15]، فمثلا السلطة دعمت و ساندت زاوية الثعالبي المشهورة لكونها بمركز السلطة (مدينة الجزائر) و كذلك لكون الثعالبي من أبناء المنطقة[16].

**علاقة السلطة بالأريــــاف:**

كان علاقة السلطة بالارياف بواسطة إدارة كانت سمتها الغالبة ا هي إدارة الأهالي بالاهالي من خلال خلفاء ووسطاء السلطة نظرا لقلة العناصر التركية وعدم استطاعتها تغطية المساحات الشاسعة بعناصرها،لذلك عمدت الى استحداث او الاستعانة بالعناصر المحلية باغراءات وامتيازات واعفاءات ضريبية.

**إدارة الأرياف عن طريق الخلفاء والقياد:**

يعتبر منصب الخليفة كنائب الباي والشخصية الثانية في إدارة البايلك بعده، وهو المكلف بحمل ضـــريبة "الدنوش الصـــغرى" إلى الجزائر في فصـــلي الربيع والخريف من كل عام، ويكلف أحيانا بقيادة الأمحال ومعاقبة القبائل المتمردة على سـلطة البايلك[17]. فبايلك الشـرق كان تحت الإدارة المباشـرة للخليفة 200 فارس، تزودهم به تســـعة قبائل، كما أنه كان يتلقى العوايد من شـــيوخ هذه القبائل عند تعيينهم، وكان منصب الخليفة غالبا ما يسند لأحد أقارب الباي[18]،

كمــا ذكر أن الخلفــاء يــأتون في آخر الربيع، فيخرجون معهم الأمحــال ليســتخلصــوا الخراج والزكاة والأعشــار [19].وأما محلة العرب فتخرج في أفريل وتقيم أربعة شـــهور، ومحلة تيطري تخرج في الصـــيف وتتم ثلاثة شـــهور، ومحلة الشرق تخرج في اليوم الأول من الصيف، وتقيم ستة شهور وأما قايد "سباو" فلا محلة له وأن وقع عصيان في رعيته تأتيه محلة مخصـوصـة يقضـي بها مآربه مع الباغي وترجع وليس ذلك كل سنة[20].

القياد: إن النظام الإداري كان لا يعين إلا القادة الذين يرغب فيهم "يختارهم" بحيث تكون وظيفة القائد وراثية تنتقل من الأب إلى الابن ولا يزول هذا النظام إلا إذا ارتكب القائد ما ينقض مصـــالح السـلطة الإدارية[21].و تعيين هؤلاء الأعيان من الشيوخ والقياد، كان يتم عن طريق فرمانات تصدر من طرف الباي نفسه أو الباشا والقياد يتم اختيارهم بناء على مواصـــفات معينة بحيث ينتمون إلى الأتراك أو إلى الكراغلة، وهذا يعطينا فكرة عن تمسك حكام الجزائر بمبدأ عدم الاعتماد على أبناء البلد الأصليين وحرمانهم من المشاركة في الحكم[22].

وبالنســـبة لدار الســـلطان وبايلك التيطري فقد كان الآغا هو من يقترح المرشحين لهذا المنصب وللباشا وحده صلاحية تنصيبهم[23]، وأغلبهم كانوا يتولون الإشراف على شؤون البوادي "الأوطان"[24].

كما يقوم القياد بمراقبة شيوخ القبائل وتصريف شؤون السكان وإقرار الأمن وفض النزاعات بين القبائل، وإقرار الامتيازات لبضع المرابطين والأعيان والعائلات ذات المكانة[25].

وللقياد أيضـا مهام اقتصـادية فهم يحددون قيمة الضـرائب المفروضـة على مختلف القبائل، ويتولون بأنفســهم الإشــراف على جمعها، كما يراقبون المبادلات الاقتصادية للمنطقة التي تقع تحت سلطتهم، ويشرفون كذلك على شؤون الأسواق اليومية للقبائل[26].وقد يحدث كثيرا ان تكون عداوة بين هؤلاء القياد أو الشـــيوخ وسكان الريف و كثيرا ما يتعرضون للطرد من قبل أفراد القبيلة[27].

و أهم القيادات التي وجدت ببايلك الشرقمثلا:

**أهم القيـادات: قـائـد أولاد عبـد النور:** وتظم هـذه القيـادة 31 واحـد وثلاثين قبيلـة وبإمكانها تجنيد ألف فارس وكانت تدار من طرق المخازنية- **قائد عامر العزابة:** يدفع قائد عامر الغزابة القاطنة قرب ســطيف 4000 بوجو ومقابل تعيينه، ويقيم هذا القائد سـوقا أسـبوعيا يقبض حقوقا على السـلع التي تباع بها3- **قائد العواسـي:** كان قائد العواســـي أو الحراكتة من أقرب أقارب الباي، وكانت هذه القبيلة هي أقوى وأغنى قبيلـة في الإقليم4- **قـائـد التلاغمـة:** وتمتـد ســـلطتـه بين أولاد عبـد النور وقســـنطينة وتتكون من 22 قبيلة.ضــف إلى ذلك قائد شــراقة بين قســـنطينة وواد الزناتي، قائد أولاد براهم "بســـاحل ســـاورة بســـكيكدة" وكانت لكل منطقة قائدها الخاص[28]، وكذلك للبايلك قادة خاصة بهم:

**قياد البايلك:** يتركز نشـــاطهم بالأرياف حيث يقيمون المحاصـــيل الزراعية ويراقبون مواشـي البايلك ويحددون مقدار الضـرائب التي تتقاضـاها خزينة البايلك عن تلك المحاصيل والمواشي[29].

لقد اختلف الأمر بالأرياف عما كان بالمدن، و كان أكثر تعقيدا ،حيث كان الأتراك في البداية مضطريين للرضوخ لمطالب هذه الفئة و خاصة و أنهم لم ينتصروا على الأسبان ولم يبسطوا حكمهم بين الأهالي إلا بمساعدة أغلبية مشايخ الزوايا الذين ركزوا بالمقابل على قوتهم المالية. وقد كانت قبائل الرعية تتميز بالاضطهاد والإكراه والقسر والاستغلال المستمر من طرف رجال البايليك، وفرسان المخزن، فاستخلصت منها الضرائب وأرغمت على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة.

1- منعها من الاتصال بالقبائل المعادية للبايليك أو الممتنعة عن نفوذه.

2- حضر عنها شراء البنادق واقتناء البارود.

3- ولضمان عدم خروج قبائل الرعية من قبضة رجال البايليك وضع على رأس القبائل الكبيرة منها قياد من الأتراك والكراغلة وشيوخ من العائلات المتعاملة مع البايات.[3] -انقسام وتفكك

قبائل الرعية مثل التحالف بين أحلاف الزيبان ووادي ريغ تحت زعامة عائلتي ابن قانة وابن جلاب. وقد عاشت الرعية في ظروف صعبة نتيجة الضغط والاستغلال الذي كانت تتعرض له، هذه الظروف دفعتها في بعض الأحيان إلى شق عصا الطاعة ضد الأتراك وحلفائهم المخزنيين أملا في تحسين الظروف المعيشية حيث نسجل عصيان قبائل أولاد عبد النور ومجانة والسقنية ...[1]هذا كله أدى إلى عودة حياة البداوة والرعي وإهمال الزراعة خاصة في أواخر العهد العثماني بالجزائر وذلك تجنبا للوقوع تحت وطأة الضرائب.

## المحاضرة 8

## علاقة السلطة العثمانية بالعلماء والمرابطين في الجزائر

:

كان الريف في غالبيته يخضع اما للسطة العسكرية لبعض القبائل المحاربة او الاجواد او للسلطة الدينية للزوايا والمرابطين الذين يمثلون جانب التصوف الروحي و منهم من كان يتزعم قبيلة أو عدة قبائل ،لذا فظهور التركي او سلطته كان كمنافس له أكثر منه كبطل للإسلام، . ونظرا لمكانة العلماء والمرابطين الرفيعة في عقيدة الاتراك

إعتبرت أضرحة المرابطين والزوايا كملجأ للفارين من العقاب،[30] فلا يطاردونهم لوقارة المكان[31]، فقد عفى الباي عثمان بن إبراهيم (1747-1755م) عن أنصار و أبناء الباي بوشلاغم الذين حاولوا قتله، و قد جاء العفو عنهم بعدما فروا إلى ضريح سيد محمد بن عودة[32]، و أثناء حرب درقاوة أوصى الباي محمد المقلش جنوده بعدم التعرض لأي فار إلى هذا الضريح بأي حال من الأحوال، حتى أن العديد من الحكام من استغل لنفسه هذا الامتياز، فمنهم من كان يفر إلى أضرحة المرابطين تفاديا لقتله مثلما فعل الداي مصطفى الذي و بعد عودته من الحملة التي قادها ضد تونس وجد دايا جديدا في مكانه،فر إلى ضريح سيدي علي مبارك[33]، و هذا تفاديا لقتله لأنه كان من عادة الجند عندما ينصّبون دايا جديدا يقتلون من كان قبله.

كما قام الحكام العثمانيون بتعيين المرابطين كجباة للضرائب أو ممثلين رسميين للبايلك، وهو ما حدث خاصة في منطقة القبائل،[34] حيث ربطوا علاقات مع أشهر العائلات المرابطة النافذة كأولاد سيدي شريف أمزيان بأمولا، بني علي شريف بشلاطة، و أحفاد سيدي محمد أمقران ببجاية، الذين أصبحوا جباة للضرائب ،التي كان يطلق عليها تسمية "لزمة مرابطي بجاية" "أو شمعة مرابطي بجاية "[35]، و كذلك بالنسبة لعائلة آل الفكون التي كان لها حق الإشراف على الضرائب المجباة على سوف الفواكه و الخضر،[36]

لكن رغم ذلك نسجل حدوث تقارب بين الأهالي والسلطة العثمانية في سنة 1817م إثر مشاركة الكراغلة وفرق زواوة ( القبائل ) في الثورة على الإنكشارية عهد علي خوجة.[3] إثر

محاولته إعادة تشكيل المؤسسة العسكرية بتعاون مع الكراغلة وشكلت فرق زواوة حوالي 2000 شخص.[4]

## علاقة السلطة بالعلماء في المدينة:

لقد كان العثمانيون عامة يبجلون العلماء و المرابطين لذا فالعلاقة التي ربطتهم بعلماء الجزائر، ليست جديدة عليهم، فقد كانت راسخة فيهم، حيث حملوا معهم هذا الشعور والإحساس إلى الجزائر بحيث كانت الطرق تقودهم و تؤثر فيهم و تحميهم و تدفع بهم نحو الجهاد أماهم فكانوا يدينون لرجالها بالولاء ويتبركون بهم، و ينظرون إليهم نظرة المريد إلى شيخه و العبد إلى سيده[37].

لهذا فمن الطبيعي أنّ العلاقة التي ربطت العثمانيين بعلماء و أولياء الجزائر تعكس لنا ما كان بإسطمبول، حيث كانت الإنكشارية على علاقة وطيدة بالدراويش خاصة المولوية، و البكداشية،[38] التي اتخذ الإنكشارية من زعيمها "حاجي بكداش" حاميا و رمزا لهم[39]، فالجندي الإنكشاري كان لما يحل بالجزائر يحمل معه عقائد مارسها في موطنه الأصلي وبالمقابل وجد مرابطين آخرين بالجزائر يزودونه بالبركات و الدعوات كلما خرج إلى الغزو البحري، كما كان يفعل آباؤه في الأناضول، و البلقان[40]، خاصة إذا عرفنا أن الدراويش الذين يرافقون الجيش لا يعودون إلى استطنبول بل يلازمون الجيش، و بعد وفاتهم تنسج حولهم الأساطير، فيصبحون جزءا من التقاليد العامة، حيث لايكاد يخرج الجند إلى المعركة إلا بعد تبركهم بولي سواء كان حيا أو ميتا[41]، كما كان من عادة رؤساء المراكب الجهادية عند استعدادهم للحرب زيارة ضريح الولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي[42]، و الولي دادة و سيدي بتقة[43] الذي يرتبط اسمه بأنه المسؤول عن هزيمة شلرلكان[44]*فإذا كان العثمانيون اعتمدوا على البكداشية، و المولوية باسطنبول فبالجزائر اعتمدوا على المرابطين و رجال الطرق الصوفية خاصة الشاذلية** و القادرية،[45]

إن العثمانيين بالجزائر عامة كانوا يبجلون المرابطين و رؤساء الطرق، و يؤمنون بمعتقداتهم التي تميل إلى الخرافة أكثر منها إلى المنطق، فحتى الذين عرفوا منهم بميولهم الثقافية اعتنقوا التصوف، و صدقوا هذه الاعتقادات منهم صالح باي الذي، و رغم تدعيمه للحياة الثقافية كان يؤمن بالخرافات حيث أنه بعد قتله للمرابط "محمد الغراب" خاف سوء طالعه، فبنى له ضريحا بقبة جميلة[46]، أما الباي محمد الكبير و بالرغم من استنارته وثقافته فقد أخذ القادرية عن جد الأمير عبد القادر، و بقي في خدمته ساعيا لإرضائه،[47] كما أن اعتقاده في الأولياء كان قويا بحيث لما عزم على فتح وهران اطمئن قلبه بعدما بشره الأولياء بفتحها[48]، و لما حدد موعد الفتح، و كان وقت حصاد طلب منه الناس تأجيل الأمر حتى فصل الخريف، و هذا بعدما يجمعوا معاشهم، لكن الباي فضل استشارة الأولياء و العلماء حيث كان جوابهم لهم "رأيكم فيه الحكمة و الصواب و لكن أنتم و نحن في رأي الأولياء و العلماء أولى الألباب فهم أدرى بالأمور، و بإشارتهم يكون الفوز والسرور"، فبعث للولي سيدي محمد بن

أبي دية الضرير بجبل تاسالة، حيث أخبره هذا الأخير بأنه سيفتحها في العام المقبل، فلما حان موعد الفتح سار و هو مطمئن القلب[49].ونتيجة للاعتقادات التي حملها العثمانيون معهم فقد بالغوا في تعظيم العلماء خاصة المرابطين و اطمئنوا إليهم، و تبركوا بهم، و استشاروهم في عدة أمور سياسية، كما أطلعوهم على خططهم[50]، و أغدقوا عليهم الهدايا، و الهبات باعتبارهم أكثر فئات المجتمع إيمانا بمعتقداتهم الدينية و نزعتهم الجهادية، كما كانوا القوة الوحيدة المؤثرة في المجتمع والتي يمكنهم الاعتماد عليها لإخضاع الأهالي والتحكم فيها عبر كل أرجاء إيالة الجزائر.

و من هذا المنطلق يمكن القول أن عامل الجهاد، و إدراك العثمانيين أنهم غرباء عن الجزائر إضافة إلى العقيدة الصوفية التي حملوها معهم، دفعت بهم إلى البحث عن حلفاء لهم في الجزائر ضمن فئات المجتمع، فكان رجال الدين و العلماء[51].و استمر هذا التحالف التركي المرابطي منذ القرن 16م إلى نهاية القرن 18م حيث ساندت الحركة المرابطية العنصر التركي العسكري في توطيد نفوذه[52].و من أشهر الطرق التي كانت لها حضوة و اعتبار لدى الحكام، الطريقة القادرية والرحمانية.فالقادرية التي تعد أول طريقة ظهرت في العالم الإسلامي و التي تنسب إلى مؤسسها عبد القادر الجيلاني[53]،* و هي أكثر الطرق انتشارا في العالم الإسلامي كافة [54].

حيث وجد العثمانيون فيهم ضالتهم، و سندهم في بلد هم غرباء عنه.

لقد استمر العثمانيون بعدما حلوا بالجزائر بممارسة عقائدهم الدينية التي مارسوها في اسطنبول، فنجدهم يزورون الأولياء طلبا للنصر، و البركة، كما كانوا يطلقون طلقات مدفعية عند ذهابهم، و إيابهم تبركا و احتراما لهم[55]، و قد بلغ اعتقاد العثمانيين في رجال الدين خاصة المرابطين إلى حد كانوا لا يلاحقون أي جان إذا فر إلى أحد الأضرحة، خوفا مما قد يلحق بهم[56].

علاقة السلطة بالعلماء لم تكن دائما قائمة على أساس المحبة الدائمة ، بل على أساس المصلحة والخدمة، فلا تكاد تمر قضية يتدخل فيها عالم أو مرابط لصالح السلطة إلا وكانت متبوعة بامتيازات كالإعفاء من المطالب المخزنية والضرائب، وكان الحكام لا يتقربون من العلماء إلى عند الحاجة[57].

من جهة أخرى حاول العلماء القيام بدور الرقيب على السلطة السياسية وهذا ما لم يسلم له به الحكام، فقد سعى هؤلاء دائما إلى ابتاع الفقهاء بالترغيب والترهيب حسب الاقتضاء، حارصين دوما على استشارة العلماء حتى يبرزوا قراراتهم ويجعلون من سلطة العلماء تابعة لسلطة السياسة، لهذا حاول العلماء دوما أن يضمنوا لأنفسهم احتلال موقع الاستشارة لدى الحاكم، وقد كانت بداية العلاقة بين العلماء والحكام هي علاقة الوظيف وقد كان احتياج العلماء للباشوات والبايات يقتصر على الطمع في المال

والوظيفة.إضـــافة لهذه الفئة من العلماء يشـــير ســـعد الله إلى وجود فئة أخرى من المثقفين الأحرار في الجزائر، وقد كانوا في ثورة دائمة على الســـلطة ويعتبرون خدمة الحكام، ذل وبيع للضـــمير ونزول في مســـتوى العلم.ويمكن التمييز بين فئة العلماء بالمدينة عن الريف:

في المناطق الخاضعة، تمتع العلماء و المرابطين بالمدن بوضعية مريحة مقابل حيادهم في الأمور السياسية إرضاء للسلطة[58]، و بعدم تدخلهم في الأمور العامة إلا لتأييد السلطة[59]، وهو ما يفسر انعزالهم عن السلطة كليا[60]، إضافة إلى نيلهم نسبة من مغانم القرصنة، و الهدايا في المناسبات، هذه الإمتيازات تحولت فيما بعد إلى امتيازات من النوع الروحي[61]، فمثلا السلطة دعمت و ساندت زاوية الثعالبي المشهورة لكونها بمركز السلطة (مدينة الجزائر) و كذلك لكون الثعالبي من أبناء المنطقة[62].

و ربما لهذه الأسباب تقلص دور العلماء السياسي بالمدن كفئة اجتماعية[63]، فمعارضتهم للسلطة كانت أقل مما كانت عليه بالريف حيث أن الزوايا التي توجد في المناطق الغير مراقبة و التي لها تأثير في المدن، ربطت علاقات صداقة تمثلت في الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة و عومل شيوخها و مقدموها باحترام بسبب نفوذهم كالطريقة الرحمانية[64].لهذا فالإطار الذي وجد فيه العلماء بالمدن لم يسمح لهم بالقيام بتجاوزات على حساب السلطة على غرار ما كان يحدث بالأرياف من فتن و معارضات تزعمها شيوخ الزوايا والمرابطون.

**علاقة السلطة <u>بالمرابطين والزوايا بالأرياف::</u>**

لقد اختلف الأمر بالأرياف عما كان بالمدن، و كان أكثر تعقيدا ،حيث كان الأتراك في البداية مضطريين للرضوخ لمطالب هذه الفئة و خاصة و أنهم لم ينتصروا على الأسبان ولم يبسطوا حكمهم بين الأهالي إلا بمساعدة أغلبية مشايخ الزوايا الذين ركزوا بالمقابل على قوتهم المالية.و بما أنه كان بالريف من المرابطين من توجه نحو التصوف الروحي و منهم من كان يتزعم قبيلة أو عدة قبائل و إهتمامه كان الأمور الدنيوية، لذا فظهور التركي كان كمنافس له أكثر منه كبطل للإسلام، لذا كان بالريف منهم من ساعد الأتراك إما كوسطاء أو كمصلحين[65]، و هناك من وقف موقفا غامضا اتجاه السلطة[66].

بالإضافة إلى المواقف المعادية، و التي تبناها مرابطو، و شيوخ الزوايا الذين لم يعترفوا بشرعية سلطة البايلك، و يرجع موقفهم غالبا حسب الأستاذ سعيدوني إلى سبب إقتصادي، و بالمقابل كان البايلك يرى أنها مؤسسات إسلامية

بدون عقيدة و كان تمركزها في المناطق الجبلية بعيدا عن أعين السلطة[67]، مثال ذلك الدرقاوية التي سيبرز دورها ألعدائي جليا بعد القطيعة التي حدثت بين العلماء و السلطة أواخر

العهد العثماني.في البداية ظهر أن السلطة سعت لاحتوائها، و التصالح معها أكثر مما سعت لكبحها[68]، و فضل الحكام التأقلم مع المرابطين على مجاهرة العداء لهم[69]، و خاصة بعدما أدركوا مدى نفوذ و تجذر الطرق الصوفية في حياة الناس، و إدراكهم للدور الذي يمكن أن يؤديه المرابط. لذا لم يعاملوا المرابطين معاملتهم لسائر الناس حيث كانوا يستشيرونهم، ويشركونهم في المعارك، و المفاوضات[70]، و جاملوهم بالهدايا و كلمات التعظيم، و اقتطاع أراضي لهم[71]، و جعلوهم كمساعدين لهم في إخضاع الأهالي عن طريق نفوذهم الديني و إحاطتهم بكل ما يحدث في الإيالة[72].

خلال هذه الفترة أي فترة التحالف قدم المرابطون مساعدتهم للأتراك مقابل تدعيم القاعدة المادية لهم من طرف الأتراك الذين قدموا أموالا هامة و هدايا مختلفة للمرابطين، وبالخصوص مرابطي المنطقة الجبلية[73]، خاصة البارزين و الخطرين منهم[74]، لهذا نجد السلطة التركية سعت بكل ما تملك لاستمالتهم لصالحها و التحالف معهم، رغم أن هذا التحالف لم يعرف نفس القوة في كافة المناطق.

ساهمت علاقة التحالف بين الطرفين في إخماد العديد من التمردات و الحركات المعادية للسلطة حيث اضطر شاكر باي ، و أحمد بن فرحات بالشرق الجزائري إلى اللجوء إلى المرابطين لمساعدتهم بعد تزايد عداء القبائل ضدهما، و هذا كان مقابل أموال وهدايا، وإصدار مراسيم الإعتراف بمكانتهم و نفوذهم، و هذا ما جعل الزوايا و الأسر الكبيرة طرفا فعالا و مؤثرا في الأحداث و وسيلة فعالة في فرض نفوذ البايلك في المناطق البعيدة و إن كان هذا الخضوع في حقيقيته شكلي لأن العديد من العائلات و المرابطين وشيوخ الزوايا فشلوا في القضاء أو في وضع حد لحركات التمرد ضد السلطة إلا بعد تدخل فرق المحلة لفرض نفوذ البايلك.

ساعدت فئة العلماء خاصة شيوخ الزوايا و المرابطين بالأرياف على مد نفوذ البايلك على أقسام شاسعة من البلاد فبالشرق امتدت هيمنة السلطة على عدة جهات كالأوراس و الهضاب و وصل حتى الصحراء و هذا بفضل عدة أسر مرابطية كأسرة أولاد مقران وأولاد بوضياف و أولاد بوعزيز وأولاد عبد النور وغيرهم، وحتى صالح باي لم يستطيع الثبوت لمدة طويلة في الحكم إلا بعد تعامله مع الأسر النافذة في بايلكه[75]، هذه المساعدة التي قدموها للبايلك فرضت على السلطة انتهاج سياسة تقارب وترضية معها،مقابل بسط نفوذ السلطة كما مثل هذا التحالف بالنسبة للعالم خاصة المرابط الظهور والبروز أكثر أمام الأهالي كقوة حقيقية.

عملت هذه العلاقة على ربط الأرياف و المناطق الغير خاضعة بالإدارة المركزية و هذا عن طريق تكوين روابط متينة بين السلطة والعلماء وخاصة شيوخ الزوايا والمرابطين منهم،وهذاعن طريق مصاهرة بعض الأتراك للعائلات النافذة الإقطاعية و المرابطية[76]،بحيث أن هذا التزاوج بين الطرفين قد أعطى ثماره،وهذا من خلال كسب السلطة إلى جانبها عدة قبائل كانت معادية لها في الأول، و هذا مثلما حدث خاصة في بايلك الشرق و منطقة القبائل.

إن النتيجة المترتبة على هذه السياسة تجسدت في ازدياد عدد الزوايا و المساجد والأوقاف، كما برزت حركة صوفية مرابطية واسعة النطاق و تحكمت في كل الأوضاع اليومية، و هيمنتها هذه سمحت للقائمين عليها بممارسة القضاء الذي كان أحد الأساليب الرئيسية لإشراكهم في دواليب السياسة[77].

إن علاقة السلطة بهذه الأطراف أعطى لها طابعا إقطاعيا اعتمد على العائلات الكبرى صاحبة الإمتيازات على حساب التجمعات الريفية فنتج عن هذا ظهور إقطاع ديني وعلمي متوارث[78]،وهذا من خلال الإمتيازات التي منحت لهذه الأطراف المتعاملة مع السلطة، فتركز قسم من الثروات بالأرياف بأيديهم، حيث قدمت لها السلطة صلاحيات واسعة كإستخلاص الضرائب،و تحصيل المغارم،إضافة إلى [illegible] شراء ومصاهرة، حتى أصبحت مراكز الزوايا ومقرات الشيوخ والعائلات الكبرى ، وغيرهم من المتعاملين مع البايلك شبه مخازن للثروات وأماكن لتكديس المحاصيل الزراعية، و بهذا أصبحت هذه المراكز و الأطراف من طرق صوفية و زوايا مرابطين قوة مالية و فكرية و اجتماعية بإمكانها زعزعة السلطة، و جعلها في خطر مثلما حدث في الفترة الأخيرة أو مرحلة القطيعة،و نتيجة لقوة هذه الطرق الصوفية أجبرت العثمانيين على التفاوض و التفاعل معها القوة بالقوة[79]. إن استغلال العثمانيين للمرابطين من أجل بسط نفوذهم على الأهالي و ضمان تبعيتهم لهم كان عائقا دون قيام وحدة وطنية[80]، و هو الأمر الذي حرص العثمانيون على عدم تحقيقه طوال مدة تواجدهم بالجزائر منتهجين في هذا سياسة التفرقة بين القبائل، و هذا بتقسيمها إلى قبائل متعاونة مخزنية أو مرابطية لها إمتيازات و قبائل غير متعاونة معهم تدفع الضرائب و تتعرض لتعسفات الجند خاصة أثناء الحملات.

**بعض المراجع**


شذري رشيدة: السلطة الروحية والسلطة السياسية في الجزائر العثمانية رسالة دكتوراه العلوم جامعة الجزائر سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1،

كوران أرجمند، السياسة العثمانية اتجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، ط2، تونس 1994، ص .16.

سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق،

محمد صالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانهم أو " تاريخ قسنطينة "، مراجعة وتعليق، يحي بوعزير، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985م ، ص186-187، (د.ط).

سعيدوني، النظام المالي للجزائر، مرحع سابق، ص43.

القشاعي فلة: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1717-1837، رسالة ماجستير، في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1989م، 1990، ص 49.

المدني أحمد توفيق: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، الجزائر، 1980، ص ص 35، 36.